

صلاح الدين الأيوبي

بطل حطين ومحرر القدس

محمد محمود القاضي

رقم الايداع
٩٨/١٣٨٤٨
الترقيم الدولى
٩٧٧ـ ٢٦٥ ـ ٢٢٨ ـ ٥

دار التوزيع والنشر الإسلامية
٨ ميدان السيدة زينب ت: ٣٩١١٩٦١ - ٣٩٠٠٥٧٢ ص ب ١٦٣٦

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، ففتح به قلوبًا غلفًا، وأعينًا عميًا، وآذانًا صمًا .

وبعد،

فإن الجهاد فى سبيل الله هو ذروة سنام الإسلام، وما تركه قوم إلا ذلوا، ومنذ أن أمر الله المسلمين بقتال المشركين فى قوله تعالى : **﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾** [التوبة: ٣٦]، انطلقت كتائب الجهاد فى سبيل الله تفتح البلاد شرقاً وغربًا ابتغاء رضا الله **﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾** [النساء: ٧٤].

وكانت كتائب الجهاد تدرك هدفها جيدًا، فقد كانت رسالتها فى كل لقاء لها مع أعداء الله واضحة، وهى: «إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

وكان يقود هذه الكتائب قادة عظام صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فصدقهم الله، وفتح على أيديهم، وأيدهم على أعدائهم فى معارك فاصلة.

وسوف نقدم فى هذه السلسلة نماذج فريدة لقادة الفتح الإسلامى الذين ضربوا أروع الأمثلة فى فنون القيادة والحرب، وكانت المعارك الحربية التى قادوها دليلاً على عبقريتهم وعظمتهم، فيجدر بكل مسلم أن يدرس سيرة هؤلاء القادة؛ ليقتدى بهم فى حياته، والله نسأل أن يرزق أمتنا بأمثال هؤلاء القادة الأفذاذ، فيفتح الله على أيديهم، ويعيدوا للإسلام عزه ومجده.

المؤلف

أحوال الخلافة العباسية

توقفت الفتوحات الإسلامية منذ أواخر العهد الأموى، وانصرف الناس إلى الصراع الداخلى، ولما تولى العباسيون أمر الأمة الإسلامية استقرت الأمور فى بدايتها؛ حيث كانت الخلافة قوية مهيبة، وكان الخلفاء الأوائل أقوياء، وكانوا هم أصحاب الكلمة الأولى والأخيرة فى قيادة زمام الأمة.

وبمرور الأيام، بدأ أمر الخلافة العباسية يضعف شيئًا فشيئًا، وزاد ظهور العصبية، فقامت دول على أساسها، ولم يكن هناك داع لقيامها لولا فكرة العصبية، كما انفصلت أجزاء عن الدولة رسميا، وأعلنت عن قيام خلافة مستقلة فيها، فكانت الخلافة الأموية فى الأندلس،

والفاطمية فى مصر وأجزاء من إفريقية، ولم تكن هذه الدول الإسلامية على تفاهم فيما بينها بل على العكس كانت معادية بعضها لبعض.

وبدأت الروح الإسلامية تضعف لدى المسلمين فى ذلك العهد بالنسبة إلى ما كان عليه المسلمون الأوائل فى العهد الأول من الإسلام.

وأصبح أهل البلاد يعيشون فى حالة من الرخاء والترف لأنهم بعيدون عن حياة الجندية والجهاد فى سبيل الله.

وبدأ خلفاء بنى العباس يستعينون بجنود من البلاد التى أسلمت منذ عهد قريب وينشئونهم تنشئة عسكرية ليقوموا بحماية الخلافة، فاستعانوا فى أول الأمر بجند من الأتراك الذين زادت شوكتهم بمرور الأيام، وأصبح الأمر بأيديهم، يخلعون الخليفة إن شاءوا، ويعينون من أرادوا، فضعفت هيبة الخلافة، وبقى الخليفة اسما أو صورة فى قصره ليس عليه سوى التوقيع على التعليمات فى كثير من الأحيان،

أو إصدار الأوامر حسب رأى القادة، وأصبح الحكم بالسيف لا بالرأي، والتنفيذ بالسوط لا بالحكمة، والناس لا حيلة لهم، فهم مجبورون على الخضوع، وهكذا فسد الوضع، فلم يعد أحد من الناس يأمن على روحه أو ماله أو عرضه، وضاعت الكرامة والعزة، وأصاب الأمة الذل، ومتى وقع ذلك فقدت الأمة مقوماتها ولم تعد قادرة على القتال، ولا على مواجهة الأعداء، وصدق عليهم قول الصديق أبى بكر: «لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله؛ إلا خذلهم الله بالذل».

واستمر زمام الأمر فى الخلافة العباسية تحت سيطرة الأتراك قرابة مائة عام، ثم انتقل بعد ذلك فى أيدى جنود من الفرس، وهم آل بويه، واستمر أيضًا مائة عام، وجاء من بعد آل بويه السلاجقة الأتراك، وتحسن الأمر فى بلاد الإسلام على أيديهم نسبيًا، حيث إنهم كانوا من أهل السنة.

أحوال أعداء الإسلام

هذا ما كـان من حال المسلمين، أما ما كـان من حال أعداء الإسـلام، ففى الوقت التى كـانت فيـه الفتـوحات الإسلامـية قـائمة والروح المعنوية للمـسلمين عاليـة، كان الروم فى حالة من الهـدوء ومحاولة الدفاع عن مـواقعهم التى تراجعوا إليـها فى بلاد آسيا الصغرى، والقـيام أحيانا ببعض الغارات التى كان هدفها إثبات الوجود كى لا يندفع المسلمون بقـوة أكبر، لظنهم أن من أمامهـم قد انتهى، أو ليبقوا على تخوف وحذر من رد فعل فلا ينطلقون.

ولما توقفت الفـتوحات الإسـلامية، وبدأت الخـلافات تظهر بين المسلمين، وبدأ الضعف يظهر عليهم هنا وهناك، حاولت النصرانية عندها أن تقوم برد الفعل.

وكانت النصرانية فى ذلك الوقت منقسمة على أمرها فالأرثوذكس فى بيزنطة ومقرهم القسطنطينية على خلاف مع الكاثوليك الذين يخضعون للبابا ومقرهم روما.

وكان كلا الفريقين يحاول القيام برد الفعل من جهته، فالبيزنطيون يحاولون التقدم فى المشرق على حين تحاول روما التقدم فى الأندلس.

ولكن فى ذلك الوقت ظهرت قوة إسلامية جديدة، وهم الأتراك السلاجقة، الذين يتميزون بروح قتالية عالية، وبدءوا يندفعون نحو الغرب بقيادة «ألب أرسلان» ولما حاول البيزنطيون التصدى لهم هُزموا هزيمة منكرة في معركة ملاذ كرد عام ٣٦٤ هـ.



بداية الحروب الصليبية

وكانت هزيمة البيزنطيين فى ملاذكرد نقطة تحول فى حياة النصرانية، فقد جعلت امبراطور بيزنطة ميخائيل السابع يتجه نحو روما لتصفية الجو بين الكنيستين المختلفين، وقد اتحيت له فى ذلك فرصة مناسبة، فقد تم انتخاب بابا جديد فى روما وهو «غريغورى السابع» فأرسل إليه ميخائيل السابع وفدًا للتهنئة، وإعلان رغبة الإمبراطور فى توثيق الصلة بين روما وبيزنطة.

فوافق البابا الجديد وأرسل وفدًا للقسطنطينية لتقديم الشكر للإمبراطور، وفى حقيقة الأمر كان البابا غريغورى يطمع بذلك فى توطيد أقدامه فى آسيا الصغرى، ويقوى نفوذه بها، وأراد أيضًا تدعيم مكانته فى أوربا كلها، فبدأ

يحرض على قتال المسلمين فى الأندلس، ودعا إلى الهجوم عليهم، وتمت الهجمات النصرانية على المسلمين فى الأندلس، ودعمتها أوربا كلها ومن خلفها البابا، فتصدى لهم أمير المرابطين يوسف بن تاشفين وانتصر عليهم انتصارًا كبيرًا فى معركة الزلاقة عام ٤٧٩ هـ.

وفى عام ٤٨١ هـ اختير ايربان الثانى بابا لروما، وزاد نفوذه فى أوربا، وكان يقوم بتدعيم النصارى فى الأندلس لقتال المسلمين، ولكنه رأى أن يغزو المسلمين فى عقر دارهم، فدعا إلى عقد مؤتمر لرجال الدين فى كليرمونت عام ١٠٩٥م ـ ٤٨٩ هـ، ودارت المناقشات فى المؤتمر حول الأمور الكنيسية، وفى نهاية المؤتمر ألقى البابا خطبة بين فيها الهدف الأساسى من المؤتمر وهو الدعوة إلى الحرب الصليبية، ودعا البابا الأمراء فى أوربا إلى نبذ الخلاف فيما بينهم، وتوجيه جهدهم لحرب المسلمين، والاستيلاء على بلادهم، وكانت حجته فى ذلك أن الحجاج النصارى إلى بيت المقدس يتعرضون لإيذاء المسلمين.

وشجع البابا الأساقفة على القيام بدورهم فى هذا العمل المقدس، وخاطب الجمهور بأن من يموت منهم هناك فله المجد إذ سيموت فى المكان الذي مات فيه يسوع (المسيح) وقدم للحاضرين صليب الخلاص ليحملوه على كواهلهم أثناء حركتهم، وأن على كل جندى أن يحمل إشارة الصليب، وبدأ البابا يتنقل بين مدن أوروبا يدعو إلي هذه الحرب الصليبية، وطلب من الأساقفة أن يبشروا بذلك.

وقام بطرس الناسك بدور كبير فى هذا المجال إذ لبس لباس الزهد، وسار حافيا يدعو إلى الحرب الصليبية، وساعد الجميع فى هذه المهمة انتشار الفقر فى ذلك العام، واجتياح السيول المدمرة عدة مناطق فى أوربا.

ودعا البابا إلى اجتماع الجيوش فى مدينة القسطنطينية بقيادة «أوهمار» وسار بطرس الناسك بجموع المتوطعين، وسبق جيوش الأمراء النصارى، ولما كان هؤلاء المتطوعين يسيرون بلا نظام، فقد سببوا الفوضى والدمار لكل المناطق

التى مروا عـليها حـتى النصرانيـة منها، حـتى شكا منهم امبراطور القسطنطينية، وعندما دخلوا بلاد الإسلام أحدثوا الكثـيـر من الدمـار والخـراب، ثـم تصـدى لهم الأتراك السلاجقة فأفنوهم جميعًا.

ثم تلت هذه الجموع الشعبـية جيوش الأمراء، وكانت أقل فوضى ولكن لم تقل عن سابقتها سوءًا.

وسار جـزء من الحملة الصليبـية إلى الرها ودخلوها، وأسسوا بها إمارة صليبيـة، وسار الجزء الباقى إلى أنطاكية ودخلوها سـنة ٤٩٢ هـ، ثم اتجـهـوا إلى بيت المـقـدس ودخلوها عـام ٤٩٢هـ بعـد أن قـتلوا أعـدادًا هائلة من أهلهـا، واستطاعـوا أن يأخـذوا حيـفا وقـيـسيـاريه وعكا وطرابلس.

ولقـد كـان للخـلاف القائم بـين الأتراك السلاجـقـة والفاطميين أثر كبير فى توطيـد الصليبيين أقدامهم فى بلاد الإسلام، فقد دعم الفاطميـون فى مصر الصليبيين فى أول الأمر، ووجـدوا فيـهم حلفـاء طبيـعيين ضـد خصومـهم

السلاجقة الأتراك، واتفقوا معهم على أن يحكم الصليبيون شمالى بلاد الشام، ويحكم الفاطميون جنوبيها، غير أن الصليبيين تابعوا تقدمهم فى الجنوب، فاصطدموا بالفاطميين، وبدأت الخلافات بينهم، والحقيقة أن الفاطميين قاتلوا الصليبيين دفاعا عن مناطقهم، وخوفا على أنفسهم، ولم يقاتلوهم دفاعا عن الإسلام.

وكوّن الصليبيون أربع إمارات صليبية فى بلاد الشام، وهى: إمارة الرها - إمارة طرابلس، وإمارة بيت المقدس، وإمارة أنطاكية.

وهكذا بسط الصليبيون نفوذهم فى بلاد الإسلام، فقد كان الصراع محتدما بين القوى الإسلامية المختلفة بدون حالة استثناء واحدة، والفراغ السياسى كان واضحا فى أماكن كثيرة، ولا يوجد من كان يملؤه بكفاءة، وأما عامة الناس فكانوا يجأرون إلى الله بالشكوى، وينادون بتقوى الله وجهاد الأعداء.



المقاومة الإسلامية للصليبيين

ورغم ذلك لم يصف العيش للصليبيين فى ديار الإسلام، إذ كانوا يتعرضون للغارات باستمرار، ولهجوم المسلمين بشكل دائم؛ إذا كان الهجوم يأتيهم من قبل الفاطميين فى الجنوب، ومن قبل السلاجقة فى الشمال.

وفى عام ٥٢٩ هـ بدأ عماد الدين زنكى والى الموصل يوجه هجماته على مراكز الصليبيين الواقعة شرق نهر العاص، وبدأت دولة عماد الدين تتوسع على امتداد الإمارات الصليبية، وبدأ عماد الدين يخطط للسير بالفتح بصورة تدريجية ومركزة، وبذل فى ذلك جهودًا كبيرة حتى أخذ إمارة الرها من أيدى الصليبيين، واستمر صراعه مع الأعداء حتى قتل عام ٥٤١ هـ، فخلفه ابنه سيف الدين

غازى على الموصل، على حين خلفه على حلب ابنه الثانى نور الدين محمود.

وسار نور الدين على سياسة أبيه فى قتال الصليبيين، وحاول الصليبيون استرداد الرها، وقامت أوروبا بإرسال الحملة الصليبية الثانية لاستردادها، ولكن هذه الحملة اتجهت إلى دمشق، فواجههم نور الدين، ودخل دمشق عام ٥٤٩هـ وأنقذها قبل أن تقع فى أيدى الصليبيين، وبذلك أخفقت الحملة الصليبية الثانية، وقوى شأن المسلمين إذ أصبحت أكثر بلاد الشام تحت إمرة نور الدين محمود، وحصر الصليبيين فى المناطق الساحلية وبيت المقدس.

لقد كان نور الدين محمود يمتلىء بالرغبة والحماس للدفاع عن شرف المسلمين ومكانتهم، وكان من أهدافه أن يجمع كلمة المسلمين على الجهاد لطرد الصليبيين من بلادهم، ثم أسهمت الأحداث فى إظهار كفاءة هذا المجاهد، واتضح للصليبيين أنه من أشد الأخطار على سلامتهم.

ظهور صلاح الدين

فى الوقت الذى كان فيه نور الدين محمود يواصل جهاده ضد الصليبيين، كان القدر يعد شخصية جديدة لتظهر على مسرح الأحداث، إنه البطل العظيم صلاح الدين الأيوبى.

ينتمى صلاح الدين إلى عائلة كردية كريمة الأصل عظيمة الشرف، وتنتسب هذه العائلة إلى قبيلة كردية تعد من أشراف الأكراد نسبا وعشيرة، هذه القبيلة تعرف بالرَّوادية، وكانت تسكن قرية تسمى دوين فى أقصى حدود أذربيجان، وقد ولد صلاح الدين سنة ٥٣٢ هـ فى قلعة تكريت، وتكريت كانت بلدة قديمة أقرب إلى بغداد منها إلى الموصل.

وكان أيوب بن شاذى والد صلاح الدين قد قدم بغداد هو وأخـوه أسد الدين شـيركـوه، واتصـلا بحاكم بغـداد السلجوقى مـجاهد الدين بهروز، فـعين بهروز نجم الدين أيوب حاكـما على قلعـة تكريت، وجعل أخـاه شيـركوه مسـاعدًا له، وقد حـدث أن أحد قواد قـلعة تكريت آذى امرأة فى شـرفها، فـاستغـاثت المرأة بشيركـوه عم صلاح الدين، فانتقم شيركـوه للشرف والمروءة وقتل هذا القائد، فخشى بهروز على شيركـوه ونجم الدين، فأمرهما بمغادرة القلعة، وفى هذه الليلة ولد صلاح الدين.

ورحل نجم الدين وشـيـركـوه من بغـداد إلى الموصل ونزلا عند عـماد الديـن زنكى الذى قابلهـمـا بالترحـاب وأكرمهما، فقد كان لهما فضل سابق عليه عندما سهلا له النجاة والسلامة أثناء مروره عليهما فى قلعة تكريت عندما انهزم جـيشه أمـام جيش السلطان السلجوقى، وأصـبحت حياته هو وجيشه فى يد نجم الدين والى تكريت.

وأسند عماد الدين أعمال الجيش إلى نجم الدين أيوب

وأخيـه، ثم عين عمادُ الدين نجمَ الدين واليـا على بعلبك عندمـا فتـحهـا سنة ٥٣٤ هـ، فـقضى صـلاح الدين فى بعلبك سـنوات طفـولتـه، وكـانت من أسـعـد السنين، وأهنئهـا، وتعلم القراءة والكتابة، وحـفظ القرآن الكريم، وأحـاديث الرسـول ﷺ، واكـتـسب الفـضـائل الكريمة، والخـصـال الحـمـيـدة، والمهـارة، وتدرب على الجـهـاد والفروسية، ومارس السياسة وتدبير الأمور.

وعرف صـلاح الدين برجاحة العـقل، وقوة النفس، وهكذا اجتمعت كل مقومات النجـاح فى شخصيته لتصنع منه سياسـيا بارعا، وقائدًا محنكا، وفارسـا مدربا، وعالما جليلا، وكـأن الأقدار قـد هيأته ليكون منقـذ الأقصى من قبضـة الصليبيين الحاقدين، لذلك اسـتعان به نور الدين، وأسند إليه منصب رئاسة الشرطة فى دمـشق، فقام صلاح الدين بهذا المنصب أحسن قـيام، وأعاد الأمن والأمان فى ربوع الشام.

الموقف في مصر

كان نور الدين محمود ينظر إلى مصر نظرة خاصة، ويود أن يضمها إلى بلاد الشام لتعزيز جانبه فى صراعه مع الصليبيين، وفى ذلك الوقت كانت مصر نهبا للثورات الداخلية والمنازعات من أجل السيطرة على منصب الوزارة الفاطمية، حتى استطاع شاور السعدى أن ينتصب وزيرًا للخليفة الفاطمى العاضد، ولكن شاور السعدى وأبناءه أساءوا معاملة الناس، مما جعل ضرغام بن عامر أحد القواد يتواطأ مع الخليفة الفاطمى ضد شاور، وثار عليه وألجأه إلى الفرار، ونصب نفسه وزيرًا للخليفة الفاطمى.

وتوجه شاور إلى دمشق، واستنجد بنور الدين محمود، وتعهد له بنفقات الحملة وغرامة سنوية، ولكن

نور الدين تلكأ فى إجابة طلبه، حتى علم أن «أمورى» ملك بيت المقدس قد هجم على مصر، وتغلب على ضرغام، فأسرع نور الدين وجهز جيشًا بقيادة أسد الدين شيركوه وأرسله إلى مصر، وكان صلاح الدين ضمن هذا الجيش.

وانتصر شيركوه على ضرغام، وصار شاور وزيرًا من جديد، ولكنه لم يف بما عاهد عليه نور الدين، وحالف الصليبيين سرًا، فاضطر أسد الدين لمحاربته، واستنجد شاور بالصليبيين، ودارت حرب بين الجيوش الشامية والجيوش الصليبية المتحالفة مع شاور عند مدينة بلبيس سنة ٥٥٩ هـ، وانتهز نور الدين هذه الفرصة فهجم على الصليبيين من الشمال فاضطر ملك بيت المقدس إلى عقد هدنة مع شيركوه على أن ينسحب الجيشان من مصر وتركها لأهلها.

وأظهرت هذه الحملة أهمية مصر، فجهز نور الدين جيشًا بقيادة شيركوه للسيطرة على مصر سنة ٥٦٢ هـ،

فتحالف شــاور مع الصليبيين، وتقابل الجيشــان فى صعيد مصر، وانــتصرت الجيوش الشــامية، وأرسل شيــركوه ابن أخيه صــلاح الدين إلى الأسكندرية لفتحها، فـذهب إليها صلاح الديــن وفتحــها، فـهاجم الصليـبيــون الأسكندرية وحاصــروها، ولكن صلاح الدين صمــد وأظهر شجــاعة عظيــمة حتى أدركـه عمـه شيــركوه، وتم عقــد هدنة بين الطرفين تقضى بانســحابهمــا عن مصر، ولكن الصليـبيين سرعــان ما خانوا العهــد، وعادوا إلى مصــر حتى وصلوا القاهرة، وحاصــروها فلم يجد شاور مفــرًا من الاستنجاد بنور الدين، فأرسل نور الدين جيشًا بقيــادة شيركوه ومعه صلاح الدين، ومــا إن سمع الصليـبيــون بقدوم الجـيوش الشامية حتى بادروا بالانسحاب.

ودخل شيركوه القاهرة، فقــربه الخليفة الفاطمى إليه، وقُتل شاور، وعَين الخليـفة الفــاطمى شيــركوه وزيرًا له، وتوفى شيركــوه بعد فترة قــصيرة، فعين الخليـفة الفاطمى صلاح الدين وزيرًا له.

صلاح الدين فى مصر

عمل صلاح الدين منذ اللحظة الأولى لتوليه الوزارة على التقرب من المصريين، فأحبه أهل مصر، واستطاع صلاح الدين أن يصد غارات الصليبيين على دمياط وغزة وأن ينتصر عليهم، فزاد ذلك من مكانة صلاح الدين فى قلوب أهل مصر، وانضموا تحت لوائه يقاتلون الصليبيين، كما استطاع صلاح الدين أن يقضى على كل المؤامرات الداخلية التى دبرت ضده.

وأراد صلاح الدين أن ينشر سيرة أهل السنة والجماعة فى أنحاء مصر مرة أخرى بعد سيطرة المذهب الشيعى عليها فترة طويلة على يد الفاطميين، فأنشأ مدرستين كبيرتين لتعليم الناس سيرة أهل السنة.

وانتهز صلاح الدين فرصة مرض الخليفة الفاطمى العاضد، وقام بالدعاء للخلافة العباسية على المنابر، وما لبث العاضد أن توفى، وبوفاته انتهت الدولة الفاطمية، وصارت مصر كلها تحت يد صلاح الدين، الذى استمر فى ولائه لنور الدين محمود، فقد كان حريصًا على أن تظل العلاقة بينهما حسنة، وتوفى نور الدين محمود عام ٥٦٩ هـ، وترك ملكه لولده الصغير الملك الصالح إسماعيل، وبدأ النزاع يجد له مكانا فى بلاد الشام بين الأمراء لدرجة أن بعضهم بدأ يتصل بالصليبيين، ووصلت بلاد الشام إلى حالة من التفرقة والانقسام.



الطريق إلى وحدة المسلمين

كان صلاح الدين يترقب الأمـر فى بلاد الشام، حتى جاءته رسالة من أهل دمشق يسـتنجدون به لينقذ البلاد من خطر الانقسام والفـرقة، فتوجه صلاح الدين بجـيشه إلى بلاد الشام، فوصل بصرى، ثم رحل إلى دمشق، فاستقبله أهلها بالتـرحاب والفـرح، فقد كـانوا يعقدون عليـه آمالاً كبيرة فى توحيد البـلاد وتحرير بيت المقدس، وأقام صلاح الدين فى دمـشق فتـرة نشر فيـها العـدل، ورفع المظالم، وأعاد الحقوق إلى أصحابها.

وأرسل صـلاح الدين إلـى أمـراء المدن الإسـلامـيـة المجاورة يبـين لهم أنه ما جاء إلـى دمشق إلا لجمع كـلمة الإسـلام ونصـرة الملك الصـالح إسـماعـيل، ومـحـاربة الصليبيين.

ثم جعل صلاح الدين أخاه سيف الإسلام أميرًا على دمشق، وانطلق هو بجيشه يواصل فتح البلاد المجاورة، ففتح حمص، ثم سار إلى حماة، ولكن واليها عز الدين جورديك امتنع عن الاستسلام فأقنعه صلاح الدين أنه ما جاء إلا ليحفظ بلاد الإسلام من خطر الصليبيين، فاقتنع والى حماة بكلام صلاح الدين وسلم بلاده إليه.

ثم أرسل صلاح الدين جورديك إلى والى حلب، سعد الدين كمشتكين ليقنعه بتسليم حلب إلى صلاح الدين، وكان كمشتكين هذا قد اغتصب البلاد من واليها الأصلى شمس الدين بن الداية، وسجنه هو وأولاده، ورفض كمشتكين تسليم حلب لصلاح الدين، وسجن رسوله، وأرسل يستنجد بطائفة الإسماعيلية الباطنية، وهى طائفة تظهر التشيع ولكنهم يستبيحون المحرمات وينكرون الشرائع، فأرسل شيخ الباطنية عدة جنود لاغتيال صلاح الدين، ولكن هؤلاء الجند فشلوا فى مهمتهم، بعد أن تصدى لهم جنود صلاح الدين، فأرسل مجموعة أخرى

من الجنود استطاعت أن تصل إلى صـلاح الدين، وضربه أحدهم بسكين فى رأسه كادت أن تقضى عليه لولا الدروع التى كان يلبسها، فوقاه الله منهم. ثم أرسل كمشتكين إلى الصليبيين يستعين بهم على مواجهة صلاح الدين، فأرسلوا إليـه جيشًا بقـيادة ريموند الـثالث، فـتوجه صـلاح الدين بجيـشه لملاقـاة جيش الصليـبيين، ولكنهم فروا لـما علموا بخروج صلاح الدين إليهم.

ولما رأى الملك الصالح إسماعيل أمر صلاح الدين يعلو خاف وأرسل إلى ابن عمه سيف الدين غازى يستنجد به، وتجـمع الأمراء النوريون فى جـيش كـبيـر لملاقاة صـلاح الدين، وكان صلاح الدين حـريصا على عدم مواجـهتهم خوفًا على بلاد الإسـلام، وحتى لا ينتهز الصليـبيون هذه الفرصة فينقضوا على بلاد الإسلام، فدعاهم صلاح الدين إلى الصلح، وعرض عليـهم أن يتنازل عن كل البلاد التى فتـحها على أن تظل دمشق تحت يديـه ويكون نائبا للملك الصالح، ولكنهم رفضوا رأى صلاح الدين.

ولم يجد صلاح الدين مفرًا من محاربتهم، فخرج على رأس جيش كبير والتقى بهم بالقرب من حماة، وانتصر عليهم انتصارًا ساحقًا، جعلهم يفرون أمامه، وفر سيف الدين إلى الموصل فتبعه صلاح الدين وانتصر عليه، وأسر عددًا كبيرًا من جنوده، واستولي على بزاعة ومنبج وقلعة عزاز، ثم ذهب إلى حلب وحاصرها.

إن صلاح الدين لم يكن يحب أبدًا أن يحارب أية قوة إسلامية، وما كان يلجأ إلى ذلك إلا إذا اضطرته الظروف الشديدة أو خوفه على مصلحة بلاد الإسلام.

وواصل صلاح الدين حصاره لحلب، فلم يجد الملك الصالح مفرًا من الصلح، فصالح صلاح الدين على أن يترك له دمشق وحمص وحماة والمعرة في مقابل أن يترك له صلاح الدين حلب.

وعاد صلاح الدين إلى مصر، وبعد فترة قصيرة جاءه خبر موت الملك الصالح، وكان الملك الصالح قد أوصى

قبل موته أن تكون حلب لابن عمه عز الدين مسعود والى الموصل فى ذلك الوقت، فسار عز الدين إلى حلب وتسلمها، ولكن أخاه عماد الدين أرسل إليه يطلب منه أن يتنازل عن حلب فى مقابل أن يأخذ سنجار، فوافق عز الدين، ورحل عماد الدين إلى حلب وتسلمها.

عندئذ وجد صلاح الدين الفرصة سانحة لفتح حلب، فذهب جيشه إليها وفتحها، واستقبله أهلها بالفرح والسرور، وبدأت أحلام صلاح الدين بتوحيد العالم الإسلامى تتحقق، وسير صلاح الدين جيشا إلى اليمن بقيادة أخيه توران شاه، وكانت بلاد اليمن فى ذلك الوقت تعانى من الفوضي والاضطرابات، وفتح توارن شاه اليمن فولاه صلاح الدين عليها، وفتح صلاح الدين برقة وطرابلس والجزء الشرقى من تونس الحالية.

وفى عام ٥٧٩ هـ دعا صلاح الدين سفراء الأمراء المسلمين لحضور المؤتمر الإسلامى فى دمشق، ليجمع كلمة المسلمين، ويزيل ما بينهم من خلافات، ولكن مندوب

صاحب الموصل رفض الانضمام تحت راية الأخوة الإسلامية، فسار صلاح الدين بجيشه إلى الموصل وحاصرها ليرد صاحب الموصل عز الدين مسعود إلى الحق، فاضطر عز الدين إلى مصالحة صلاح الدين على أن يظل واليا على الموصل تحت إمرة صلاح الدين.

وكان صلاح الدين حريصًا على أن يرتبط بالخلافة العباسية فى بغداد فأرسل إلى الخليفة العباسى المستضىء وطلب منه أن يقلده أمر البلاد التى فتحها، وأن تكون هذه البلاد له ولأولاده من بعده، فوافق الخليفة العباسى، وأرسل إلى صلاح الدين وفدًا بالتقليد.

وهكذا استطاع صلاح الدين أن يكون دولة إسلامية قوية تشمل شمال العراق والشام واليمن ومصر والمغرب وسواحل إفريقية الشمالية.



المواجهة مع الصليبيين

لقد كانت وحدة البلاد الإسلامية هى الشغل الشاغل لصلاح الدين فى الفترة السابقة، لأنه كان يعلم جيدًا أن المسلمين لن يستطيعوا تحرير بلادهم من أيدى الصليبيين وهم متفرقون متحاربون، أما وقد تحققت هذه الوحدة الآن، فقد بات صلاح الدين ينتظر فرصة مناسبة للانقضاض على الصليبيين، وحانت اللحظة التى ينتظرها صلاح الدين، فقد اعتدى الصليبى أرناط أمير الكرك على قافلة تجارية لصلاح الدين سنة ٥٨٢ هـ، وخان بذلك المعاهدة التى كانت بينه وبين صلاح الدين، والتى كانت تقضى بألا يتعرض لقوافل المسلمين التى تمر بهم، ولم يتوقف أرناط عند ذلك بل فعل جريمة نكراء فى حق المسلمين، فقد استهزأ بالدين وبالنبى ﷺ عندما قال

للأسـرى الذين فى يديه: إن كنتم تعتـقدون فـى محـمد فادعوه الآن يفك أسركم ويخلصكم من شر ما وقعتم فيه.

وعندما علم صلاح الدين بـذلك أقسم أن يقتل أرناط بيده، وأعد العـدة وجمع جيوش المسلمين، وهـيأ النفوس للجهاد فى سـبيل الله، وألهب حماسهـا للدفاع عن دينها وحرمته.

وفى ذلك الوقت كان حجاج بيت الله الحرام فى طريق عـودتهم إلى بلادهم بعـد أن أدوا فريضـة الحج، فخـرج أرناط إلى طريق رجوعهم للقضـاء عليهم، فخرج صلاح الدين بجيشه، وعسكر فى بصرى حتى مر الحجاج بسلام، ثم عقـد صلاح الدين مـجلسا للشـورى للتشـاور فى أمر الصليبيين، وكان صلاح الدين لا يقطع برأى حتى يستشير فـيـه، فاتفـقت كلمـة المسلمين علـى الخروج للجـهـاد، وخرجت جموع المسلمين بعد صـلاة الجمعة فى شهر ربيع الآخـر سنة ٥٨٣ هـ، وهم يكبرون تـكبيـرًا عاليـا يزلزل قلوب الأعداء، ويلهب حماس المؤمنين.



وصل صلاح الدين بجيشه إلى رأس الماء، فجعله مركزًا لاجتماع الجيوش، وترك ولده فى هذا المكان بجزء من الجيش، ثم واصل سيره بالجيش إلي البلاد المجاورة، فسار إلى بصرى، ثم توجه إلى حصن الكرك، ثم عاد إلى طبرية، وكان كل همه أن يستحث المسلمين على الخروج للجهاد، وكان تفكيره كله فى كيفية خلاص المسجد الأقصى من أيدى الصليبيين، لذلك كان الأسى يعلو وجه صلاح الدين، ولا تراه فى تلك الفترة إلا حزينا، وعزفت نفسه عن الطعام، ولما حاول بعض أصحابه أن يخرجوه من حالته تلك، قال قولته المشهورة:

كيف يطيب لى الفرح والطعام ولذة المنام وبيت

المقدس بأيدى الصليبيين؟

فأين أنت اليوم يا صلاح الدين لترى غفلة المسلمين عن مسرى رسول الله، وأول القبلتين وثالث الحرمين؟ أين أنت اليوم يا صلاح الدين لترى اليهود وقد حرقوا منبرك فى المسجد الكريم ودنسوا مقدسات المسلمين؟

وكان صلاح الدين يمر كل ليلة على المجاهدين فى خيمهم ويذكرهم بفضل الجهاد فى سبيل الله، وإذا وجد أهل خيمة يصلون أو يذكرون الله استبشر وفرح وقال: من هنا يأتى النصر، وإذا وجد أهل خيمة غافلين قال: من هنا تأتى الهزيمة.

وأحس الصليبيون بالخطر من أمر صلاح الدين، فاجتمع أمراء الصليبية وحشدوا الحشود، وتوجهوا إلى طبرية، وفى مكان يسمى حطين التقى الجمعان فى صباح يوم شديد الحر، وهجم المسلمون على أعدائهم يعينهم فى ذلك العطش الشديد الذى أصاب الصليبيين من شدة الحر، وتقهقرت جموع الصليبيين وانهزموا هزيمة منكرة، وقتل

منهم حوالى عشرة آلاف قتيل، وأسر منهم عدد كبير حتى أن الجندى المسلم من جيش صلاح الدين كان يسحب خلفه فى حبل واحد أكثر من ثلاثين أسيرًا من فرسان الصليبيين وأبطالهم، ورؤى جندى مسلم يحرس وحده أكثر من مائتى أسير من أبطال الغزاة الذين كانوا يتباهون يوما بعدد رءوس من قتلوهم من المسلمين.

وانهارت الأسطورة العسكرية للصليبيين، وهاهم اليوم فى حطين يسيرون مقيدين فى الحبال، ويفرون يطلبون النجاة، ويلقون أسلحتهم مستسلمين صارخين يطلبون النجاة.

وفى نهاية المعركة أسر ملك بيت المقدس وأرناط أمير الكرك، واجتمع صلاح الدين بمستشاريه فى خيمة أقيمت له، وسجد الجميع شكرًا لله تعالى على نعمة النصر، وأُحضر ملك بيت المقدس «جاى لوزجنان» ومعه أرناط أمام صلاح الدين، فطلب ملك بيت المقدس شربة ماء، فأمر صلاح الدين بإحضار ماء بارد، فشرب منه الملك،

وأعطى ما بقى منه لأرناط، ثم قام صلاح الدين وقتل أرناط بيده وفاء لقسمه بعد أن تطاول أرناط على الإسلام والرسول الكريم ﷺ، فارتعد ملك الصليبيين، ولكن صلاح الدين طمأنه قائلا:

لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملك، وأما هذا فإنه تجاوز حده، فجرى عليه ما جرى.

وواصل صلاح الدين زحفه على أماكن تجمع الصليبيين ففتح عكا والمدن والحصون التى حولها وهى صيدا وجبيل وبيروت، وبعد ذلك فتح عسقلان .

وحاصر صلاح الدين الصليبيين فى بيت المقدس، ومنع عنهم الإمدادات فاستسلمت الرملة والداروم وغزة وبيت لحم والنطرون.

وأثناء توجه صلاح الدين إلى بيت المقدس جاءته رسالة من أحد المسلمين المأسورين يقول فيها على لسان بيت المقدس:

يا أيهـــا الملك الـــذى   لمعـــالم الصلبـــان نكس
جـــاءت إليك ظـــلامه   تسعى من البيت المقـــدس
كل المســـــاجد طهرت   وأنـا على شرفى منجس

فألهبت هـذه الاستغاثة الحماس فى صدور المسلمين، وازداد إصــــرارهم على تـخليـص الأقــصى مـن أيدى الصليبيين.

واضطر صلاح الدين إلى محاربة الصليبيين فى بيت المقدس بعد أن رفضوا الاستسلام وتسليم القدس إلى صلاح الدين دون قتال، وأحكم صلاح الدين الحصار فاستسلم الصليبيون فى القدس بعد أسبوع واحد من الحصار، وصالحوا صلاح الدين على أن يسمح لهم بالخروج فى مدة أربعين يوما، ويدفع الرجل منهم عشرة دنانير والمرأة خمسة والولد اثنين، ومن لم يستطع ذلك فهو أسير.

لقد كانت حطين هى أول هزيمة ساحقة تنزل بالغزاة،

وكانت ثـمرتها الخـالدة هى تحريـر بيت المقدس واسـترداد القدس، واشتركت النساء والأشبال فى جيش صلاح الدين الذى فتح القـدس، وتم التحريـر فى يوم الجمعـة السابع والعشرين من رجب ليلة الإسراء، وصلى المسلمون الجمعة فى المسجد الأقصى بعد أن انقـطعت فيه الصلاة مدة تزيد عن تسعين سنة.

وأرسل صلاح الدين فأحضر المنبر الذى كان قد صنعه نور الدين محمود ونذره للقدس، ولكنه مات قبل فتحها، فلما انتصر تلميذه صلاح الدين، بعث فجاء بالمنبر ووضعه فى المسجد، وهو المنبـر الذى أحرقه اليهـود إحساسًا منهم بوحدة الهـدف ووحدة المصيـر مع الغزوة الصليبيـة، وظنا منهم أن حرق المنبـر الذى كانت إقامته رمـزًا للنصر يمكن إحراقه ضمانة لعدم تكراره، وخطب الجمعة فى ذلك اليوم المشهـور قاضى دمـشق محى الدين بن الزكـى، وقال في خطبته:

أيهـا الناس، أبشـروا بـرضـوان الله الذى هو الغـاية

القصوى والدرجة العليا، لما يسره على أيديكم من استرداد هذه الضالة وردها إلى مقرها من الإسـلام بعد ابتذالها فى أيدى المشركين قريبا من مائة عام، وتطهير هذا البيت الذى أذن الله أن يرفع وأن يذكر فـيه اسمه، وإمـاطة الشرك عن طرقه بعـد أن امتد عليهـا رواقه، واستعـمر فيهـا رسمه، ورفع قواعده بالتوحيد فإنه بنى عليه، وبالتقوى فإن أسس على التقـوى من خلفه ومن بين يديه، فهـو موطن أبيكم إبراهيم، ومعـراج نبيكم عليـه الصلاة والسلام، وقـبلتكم التى تصلون إليهـا فى ابتداء الإسلام، وهو مقـر الأنبياء، ومقصد الأولياء، ومقر الرسل، ومهبط الوحى ومنزل تنزل الأمر والنهى، وهو فى أرض المحشر وصعيد المنشر، وهو فى الأرض المقدسـة التى ذكرها الله فى كـتابه المبين، وهو المسجـد الذى صلى فيه رسـول الله ﷺ بالملائكة المقربين، وهو البلد الذى بعث الله إليه عـبده ورسوله وكلمـته التى ألقاها إلى مريم وروحه، عيـسى الذى شرفه الله برسالته، وكرمـه بنبوته، ولم يزحـزحه عن رتبـة عبـوديته، فـقال

تعالى: ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ وهو أول القبلتين، وثانى المسجدين، وثالث الحرمين، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه، ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه، ولولا أنكم ممن اختاره الله من عباده، واصطفاه من سكان بلاده لما خصكم بهذه الفضيلة التى لا يجاريكم فيها مجار، ولا يباريكم فى شرفها مبار، فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية، والوقعات البدرية، والعزمات الصديقية، والفتوحات العمرية، والجيوش العثمانية، والفتكات العلوية.

جددتم للإسلام أيام القادسية، والوقعات اليرموكية، والمنازلات الخيبرية، والهجمات الخالدية، فجازاكم الله عن نبيكم أفضل الجزاء، وشكر الله لكم ما بذلتموه من مهجكم فى مقارعة الأعداء، وتقبل منكم ما تقربتم به إليه من مهراق الدماء، وأثابكم الجنة فهى دار السعداء، فاقدروا - رحمكم الله - هذه النعمة حق قدرها، وقوموا

إلى الله بواجب شكرها، فله النعمة بتخصيصكم بهذه النعمة وترشيحكم لهذه الخدمة.

لقد كانت حطين نقطة التحول التى انهت غزوة الصليبيين، وبداية زوال وجودهم، صحيح أن الصليبيين بقوا بعد ذلك فى أرض الإسلام قرنا آخر، ولكن حطين هى المعركة الفاصلة، فإن ذلك البقاء لم يكن إلا ذيول النهاية، ففى حطين عاد الأقصى إلى رحاب المسلمين، وانتصرت الأمة الإسلامية على كل عناصر ضعفها، وأدركت قدرتها على مواجهة الأعداء ومن هنا تبرز حطين كقمة شاهقة فى تاريخ المسلمين، كإحدى المعارك المصيرية التى أبقت الشام إسلامية بل أبقت بلاد الإسلام كلها.

ولم تتوقف حلقات الصراع بين المسلمين والصليبيين بعد ذلك، فقد جاءت الحملة الصليبية الثالثة واشتركت فيها أوروبا كلها، وعلى رأس الجيوش فريدريك بربروس إمبراطور ألمانيا، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا، وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا.

واستـمرت المعارك بين الطرفين فتـرة طويلة، ووقعت عكا فى أيدى الصليـبيين، وحـدثت خلافات شـديدة بين قادة الحـملة الصليبـية، ولكن ريتـشارد قلب الأسـد كان مصرًا على مـواصلة الحرب مع صلاح الدين حـتى يسترد بيت المقدس، ولكن صلاح الدين والمسلمين اسـتبسلوا فى الدفاع عن مسرى رسول الله ﷺ.

وأخـيرًا حـدث الصلح بين الطـرفين على أن يسـتقـر الصليبيون فى الشريط الساحلى الممتد من صور إلى حيفا، ويسمح لهـم بزيارة بيت المقدس، وأن تتـوقف الحرب بين الطرفين ثلاث سنوات وثمانية أشهـر، وعاد ريتشارد قلب الأسد إلى بلاده بعد أن خسرت الحـملة الصليبية هذه المرة الكثيـر من أبنائها وفرسـانها، ولم يكن صـلاح الدين قد أقدم على هذا الـصلح مختـارًا، إنما الظروف السيـئة التى أحـاطت به فى هذه الفـتـرة هى التـى ألجـأته إلى الصلح مـضطرًا، ولو سارت الأمـور حسب هوى صـلاح الدين لاستمر فى جهاد الأعداء حتى الموت.

أخلاق صلاح الدين

لصلاح الدين كثيرًا من السجايا الطيبة والأخلاق الكريمة، وكان ـ رحمه الله ـ على حظ عظيم من العبادة والطاعة لله، وكان شديد المواظبة على الصلاة، ومحافظا على صلاة الجماعة، وكان يواظب على السنن والنوافل، وكثير القيام بالليل. وكان يكثر من الصدقة حتى استغرقت جميع ما ملكه من أموال.

وكان يحب سماع القرآن الكريم، وتراه دائما خاشع القلب ودامع العين إذا سمعه، وكان يحب أحاديث رسول الله ﷺ، ويقرب إليه العلماء وأهل الدين والصلاح.

وكان -رحمه الله- كثير التعظيم لشعائر الدين، مبغضا للكفرة والملاحدة، وكان حسن الظن بالله كثير الاعتماد

عليـه، عظيم الإنابة إليـه، دائم التـوكل على الله فى كل عمل يفعله.

وكان رحمه الله على جانب كبـير من العدل والرحمة ونصرة الضعيف، فما استغاث به أحد إلا نصره فى الحق، وكان دائم السهر على قضاء مصالح المسلمين.

وكان مضـرب المثل فى الشجاعة والإقـدام، وشهد له أعداؤه بذلك قـبل الأصدقاء، وكـان يتقدم الصـفوف عند الحرب، ويثبت فى أحلك الظروف، وأشد الأزمات، فقد كان رابط الجـأش، ثابت العزيمة، وكان صـابرًا محتسـبا، فقـد جاءه خبر وفـاة ابنه إسماعـيل فصبر واحـتسب ولم يحدث أحدًا، ولم يظهر عليـه شيء من الألم سوى دمعة ذرفت من عينيه.

ومن الأخـلاق الكريمة التـى كان يـتـحلى بهـا الحلم والعـفو، فكثـيرًا مـا يقابل الإسـاءة بالإحسـان، والغلظة بالحلم.

وقد حدث أن أمر بإطلاق سراح فتاة فرنسية، ولكنها بدلا من أن تشكره على سماحته، صرخت فى وجهه قائلة: أيها المجرم السفَّاح لقد قتلت أبى وأسرت أخوى، فلم يعد لى عائل.. وها أنت تمن على بالحرية كيما يزداد بلائى.

ولكن صلاح الدين لا يغضب منها، وقال لها: أما أبوك فقد قتل فى حرب هو الذى أشعل نارها، واعتدى بها على القوم الآمنين، وأما أخواك فإنى أطلق سراحهما إكرامًا لامرأة فى حاجة إلى العائل المعين، فاعتذرت إليه الفتاة، فسألها: إلى أين أنت ذاهبة؟ فقالت: إلى بلادى. فسألها: وماذا ستقولين لقومك؟ قالت: أقول لمتعصبيهم كلمة الحق فى الإسلام والمسلمين.

ورأى -رحمه الله- امرأة تصرخ وتصيح فسأل عنها، فعرف أنها فقدت ابنها، فأمر جنوده أن يبحثوا عنه، حتى وجدوه، وردوه إليها، فقال لها صلاح الدين: خذيه، ولا تربيه على بغضنا، فنحن لسنا وحوشا مفترسة، ولكننا

ندافع عن حقنا وأرضنا.

وعـامل صلاح الدين الزوار الـنصارى الذين توافـدوا على بيت المقدس بالتسامح والأخلاق الكريمة.

ولقد كان الصليبيون أنفسهم يعجبون من هذا التسامح الكريم، وكـانت هذه المعاملة الرحـيمة من صـلاح الدين سـببـا فى التـجاء الكثـيـر من الصليـبيين إلى الإسـلام، والدخول فيه.

وعـرف صـلاح الدين بالزهد والكرم، والعـزوف عن الدنيا وزينتـها ومبـاهجها، فـقد بنى له أتباعـه مرة منزلا أنيقًا، فلم يهـتم به، وقال: مـا كنا لنجلس فى هذا المكان إلى الأبد، فـهـذا المنزل لا يصلح لمن يطلب الموت، ومـا نحن هنا إلا لنقوم بخدمة الله سبحانه.

هذا هو سر نجاح صلاح الديـن، فهو رجل أصلح ما بينه وبين الله، فأصلح الله له أمره، وهكذا المسلم الصحيح توجد معه دائما أسباب النجاح.

وفاة صلاح الدين

وعاد صلاح الدين إلى دمشق، فاستقبله أهلها بالفرح والسرور، وشرع صلاح الدين فى تنظيم شئون البلاد، وإقامة العدل، ورفع الظلم، وإعانة المحتاجين، وفى شهر صفر سنة ٥٨٩ هـ خرج صلاح الدين يستقبل الحجاج العائدين من مكة، وتأثر صلاح الدين من هذا اللقاء، فقد كانت أمنيته أن يحج إلى بيت الله، ولكن ليس كل ما يتمناه الإنسان يناله، وما إن رجع صلاح الدين من استقبال الحجاج حتى أصابته الحمى، وازداد مرضه، وفزع الناس جميعًا، وتكاثروا حول قلعة دمشق يسألون عنه.

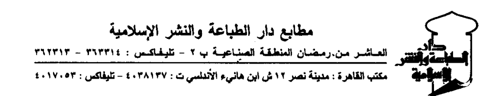
وفى ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة ٥٨٩هـ ساءت حالة صلاح الدين، فاستدعى أحد المقرئين

ليقرأ عنده القرآن، حتى إذا وصل القارىء إلى قوله تعالى: ﴿**لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ**﴾ تبسم وجه صلاح الدين وتهلل، وأسلم الروح لبارئها.

وكان يوم موت صلاح الدين عصيبا على الناس جميعًا، وكان يوم لم يصب الإسلام والمسلمون بمثله منذ أن فقدوا الخلفاء الراشدين، لقد فقدت الأمة رجلاً عظيمًا كان له فى التاريخ ذكر، وفى القلوب مكانة، وفى النفوس احترام وإجلال، وهيهات أن تلد الأمهات مثل صلاح الدين نبلا وتضحية وجهادًا وإخلاصًا.

مات صلاح الدين ولم يترك فى خزانته إلا سبعة وأربعين درهما، ودينارًا واحدًا، ولم يترك أى شىء آخر.

لقد مات صلاح الدين ولم يشهد نهاية الغزاة، ولكنه هو الذى أصدر الحكم بالنهاية، وبقى على التاريخ أن ينفذ حكم البطل.



مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية
العاشر من رمضان المنطقة الصناعية ب ٢ - تليفاكس : ٣٦٣٣١٤ - ٣٦٢٣١٣
مكتب القاهرة : مدينة نصر ١٢ ش ابن هانىء الأندلسي ت : ٤٠٣٨١٣٧ - تليفاكس : ٤٠١٧٠٥٣